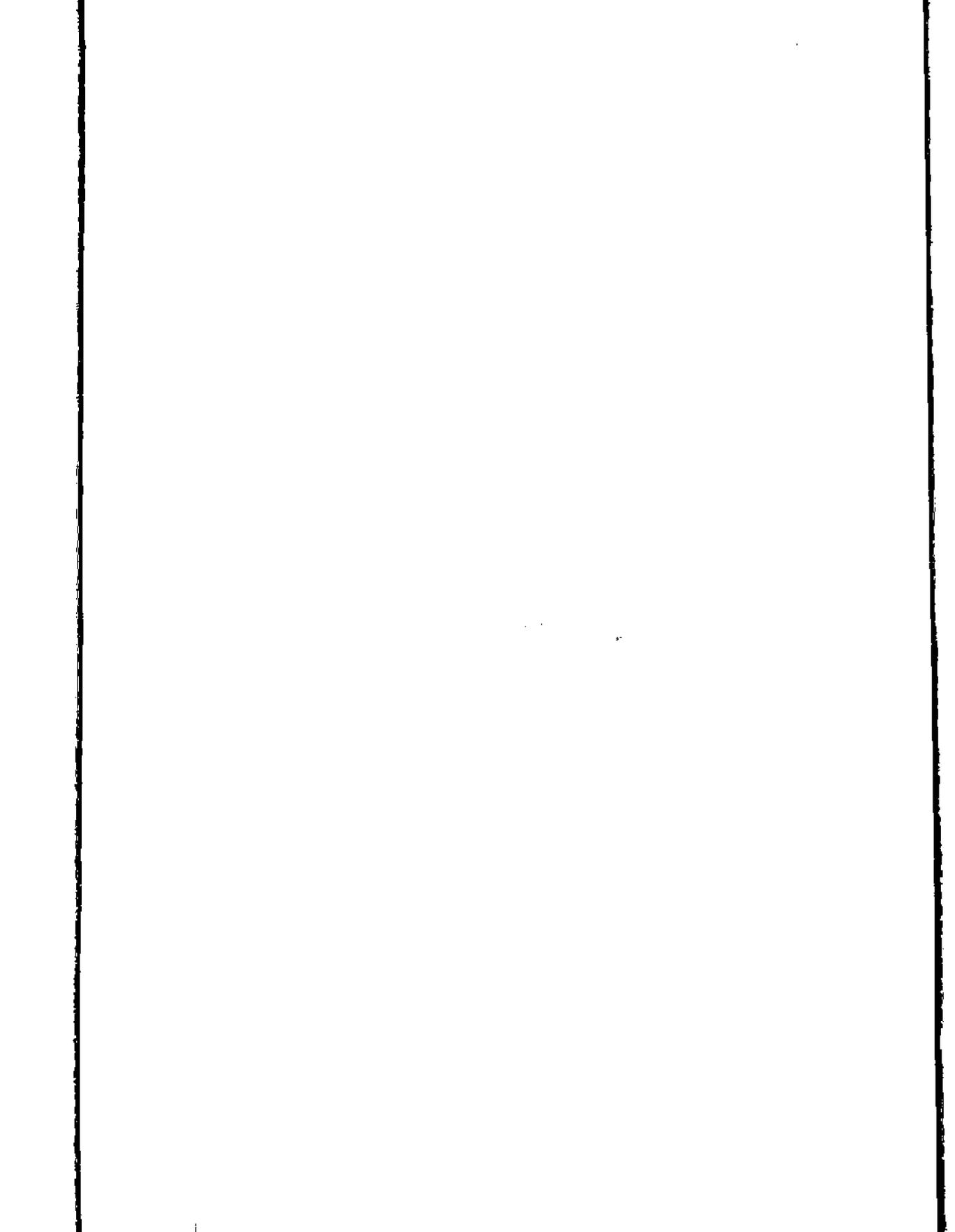


## الباب السادس

الحياة الروحية في مدرسة الموصل



## الفصل الأول

### سمات الحياة الروحية في الموصل

كانت منطقة الموصل في شمال العراق - موطناً قديماً قد تعرض لثقافات متعددة قبل الإسلام . كان شمال العراق مسرحاً لدول متعددة . أولها الدولة الآشورية . وقد أسست الدولة الآشورية ، نينوى وهي تقع بجواررة للموصل . ثم أعقبها المملكة الكلدانية الجديدة . . . وقد كان للآشوريين أو الكلدان الجدد بقايا في العصر الإسلامي ، ثم تناولت المنطقة الأحداث وأتى إليها الفرس ، كما كان يعيش بجوارها الأكراد . وفي الموصل . . . قبر يونس بن متى ، وكان المسيحيون يحجون إليه . . . وانتشر المسيحيون فيها ، وكثرت الأديرة ، وظهر في نينوى إسحاق النينوى - كما كان لتعاليم القديس إفرائيم أثر فيها .

كما كان بالقرب من الموصل جبل القاف ، وعليه هيكمل لشهيدتين مسيحيين أسطوريين هما بهنام وسارة . كما أن بجوار البصرة أيضاً قبر ناحوم النبي اليهودي . وكان أيضاً في هذه المنطقة وبالقرب من تكريت جنوب الموصل قبائل عربية أتت وسكنت الحضرة ، والحضر هي حضر الآشورية . كانت المنطقة إذن عامرة بالديانات المختلفة والأجناس المتعددة ، وقد عاد الآشوريون أيضاً إلى نينوى قبل الإسلام ، كما يذكر أيضاً أن المسيحيين من الآراميين أقبلوا إليها ، لخصب المنطقة ولوجود قبر النبي يونان ، كما قلت .

أما عن الموصل نفسها فقد سميت باسم - الحصن العبوري - حسناً عبرانياً ، وقد أنشأها - أول الأمر الفرس تحت اسم ، نوارد شير .

وأق خالد بن الوليد عام (٢٠ هـ) ففتح الحصن العبوري ونوارد شير ، ولم يجد فيها سوى محلتين : واحدة للفرس والأخرى للجرامقة النصارى . وأسكن فيها خالد قبيلة الخزرج الأنصارية ، ثم أتى إليها بنو أزد ثم بنو تميم . وما زال الموصليون حتى الآن يتكلمون لغة بني تميم . وحين استقر العرب في تلك الديار ، أصبح أغلب أهل الموصل من تلك القبائل العربية النازحة ، ثم بقايا الأمم السابقة ، وبخاصة الآراميين ، وكانوا يكونون متحفاً حضارياً عجيباً . ثم الأكراد ، وفي عصر متأخر أتى اليزيدية . . . والتركان ثم الشبك والباجوران . . . وهم فرس ، ولكن لغتهم مزيج من الفارسية والكردية والتركية .

وحين فتح العرب الموصل كانت بيد الروم لا بيد الفرس . ثم سكنها العرب - كما قلت - وعاشت الموصل حياتها في عصر الخلفاء الراشدين ، ثم قامت الفتنة بين علي ومعاوية ، وظهر الخوارج - وكانت الموصل قبلة للخوارج - يأتون إليها كثيراً . ولسنا هنا نتبع تاريخ الموصل السياسي .

وإنما نلاحظ ظاهرة غريبة ، فلم يأت للموصل صحابي كبير من ذوى العزم ، ليقم فيها مدرسة دينية كبرى ، كما حدث في الكوفة والبصرة ودمشق والقسطنطينية . فلم يظهر عبد الله بن مسعود آخر ، كما ظهر في الكوفة ، أو أبو موسى الأشعري ، كما في البصرة ، أو أبو الدرداء في الشام . . . . . ويبدو أن الموصل اتصلت اتصالاً روحياً بالمدينتين البصرة ، والكوفة أول الأمر ، فكان لعطاء السلمي البصري أثر كبير في عبادها ، وبخاصة أن كثيرين من السليبيين سكنوا الموصل ، وكانوا على صلة ببني عمومتهم في البصرة ، كما اتصلوا بسفيان الثوري ، محدث الكوفة وزاهادها وتلمذوا عليه ، كما اتصلوا بمدرسة الشام وشيخها الداراني وابن أبي الخوارى ، وكان لعبادها الصلوات الكبيرة بهما ، ثم انتهى بهم الأمر - بعد إنشاء بغداد - إلى الاتصال بعبادها وزاهادها - كبشر بن الحافي وغيره . وتميزت الموصل أيضاً بعباد جبل « قاف » وقد قلنا إنه كان على هذا الجبل دير مسيحي ، هو دير مار بهنام ، كما أنه يوجد أيضاً دير مار متى . . . . . نسبة إلى الشيخ متى الناسك القديم ، والذي اعتنق بهنام وساره المسيحية على يديه ، فقتلها أبوها سنحاريب ، في قصة أسطورية اعتبرت من قصص الشهداء .

كما كان في الموصل مدارس متعددة . ومن أهمها مدرسة مار كوريبيل . وهي مدرسة ديرية وكانت على دجلة ، بالقرب من باشطابية - وقد اشتهرت هذه المدرسة بتدريس الفلسفة واللغات . وقد ذكر هذه المدرسة يوحنا بن خلدون الموصلي في كتابه المسمى يوسف البابونسي<sup>(١)</sup> .

وأول من نجد اسمه من عباد البصرة هو معروف بن أبي معروف ( قتل عام ١٣٣ هـ ) وقد ذكرته المصادر بأنه كان عابداً وناسكاً<sup>(٢)</sup> . وقد قتل في ملحمة الموصل المشهورة ، على يد يحيى بن محمد العباسي . وقد ذكر أنه كان من تلامذة الحسن البصري ، وقد دعت ملحمة الموصل إلى القول بأن الموصل بلد « الأبدال » ويذكر الأزدى : إن أبا بكر بن عباس الزاهد المشهور يقول « ابتداء الأبدال من أهل الموصل<sup>(٣)</sup> » كانت النكبات تحمل إذن بالموصل ، ولكنها وصلت أوجها في عهد أول خلفائهم السفاح . وكان لابد للزهاد أن يشعروا بأسى لمقتلة المسلمين ، وأن يعلنوا أن الموصل بلد « الأبدال » وكانت كلمة الأبدال عرفت ونحن نعلم أنها ستأخذ المصطلح الفني بعد ذلك في دوائر الصوفية مع مصطلح الغوث والقطب .

(١) سليمان الصانع : تاريخ الموصل ج ١ ص ٩٣ .

(٢) أبو القاسم الأزدى : تاريخ الموصل ص ١٤٧ - ١٥٣ . (٣) نفس المصدر ص ١٥٤ .

## الفصل الثاني

### المعافي بن عمران ومدرسته

وما لبثت حياة الزهد أن ظهرت في الموصل على يد أول زاهد رسمي ، أو بمعنى أدق أول زاهد أرخت له كتب الطبقات ، وهو المعافي بن عمران وكان يكنى أبا مسعود . وقد توفي سنة خمس وثمانين ومائة .

وكان المعافي بن عمران فقيهاً ومحدثاً وقد روى عنه عبدالله بن المبارك محدث خراسان المشهور وكان يقول عنه « حدثني ذلك الرجل الصالح »<sup>(١)</sup> . وروى عنه الصوفي المشهور بشر الحافي أيضاً وكان يتعشقه<sup>(٢)</sup> . وقد سأل رجل بشر الحافي « مالي أراك عاشقاً للمعافي بن عمران . فقال : مالي لأعشقه ، وكان الثوري يسميه : ياقوتة العلماء . . . وقد اشتهر المعافي بن عمران بالفقه والحديث ، كما يذكر الأزدي ، كما يذكر أيضاً أن سفيان الثوري كان يقول : امتحنوا أهل الموصل بالمعافي بن عمران ، فن ذكره بخير قلت : هؤلاء أصحاب سنة وجماعة ، ومن عابه قلت : هؤلاء أصحاب بدع » .

أما عن حياة هذا الفقيه الناسك الورع ، فقد كانت حياة زهد تامة ، ويذكر بشر بن الحارث الحافي أنه قتل للمعافي ولدان في وقعة الموصل ( عام ١٦٨ هـ ) فلم يظهر الجزع ، ولا سمع من داره صوت ولا بكاء ، بحيث كان يوصف بأنه « صاحب كمد » وحين أخذ الذين قتلوا ابنه ، ووضعوا في قصر . كان المعافي فيه ، قال لهم « تدلوا من هذا القصر ولا يشعروا بكم أحداً وامضوا لشأنكم »<sup>(٣)</sup> وهي صورة من العفو قلما تحدث للبشر .

وقد كان المعافي بن عمران يمثل الثوري تمام التمثيل ، فهو محدث ، وفقه زاهد . وقد تتلمذ على الثوري وأكثر ملازمته والتأدب بأدابه . ويذكر الخطيب البغدادي وابن الجوزي أنه صنف كتاباً في السنن والزهد والآداب ، ولم يصل إلينا هذا الكتاب ، كما أن الأخبار التي وصلت إلينا عنه قليلة ، وكذلك أقواله - فيها عز المؤمن ، استغناؤه عن الناس وشرقه قيام الليل ، ويذكر الأزدي أن ثمت زاهداً آخر كان

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . . ج ١٣ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) الأزدي : أخبار الموصل ص ٨١ ، ٨٢ ، ٣٠١ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، والخطيب البغدادي :

تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٢٦ .

معاصراً للمعافى بن عمران وهو القاسم بن يزيد الجرمي الموصلى . ويقارن بينه وبين المعافى بن عمران فيقول كان المعافى أسمع الرجلين صوتاً ، وكان القاسم الجرمي صالحاً ، وكان على بن حرب (الزاهد المتوفى عام ١٦٥ هـ) يدخل عليه ، فيجده على قطعة بارية وتحت رأسه لبنة . . . وكان جيرانه يقولون « جارنا من عشرين سنة ما اقتضانا حاجة قط (١) » .

هكذا كان أوائل الزهد في الموصل - فيما أرجح - يمثل مدرسة الزهد ، فقيه من مدرسة الثوري ، يدخل في أعماق حياة العبادة والزهد ، ولا نجد أثراً لمسيحية أو يهودية أو غنوصية .

وجاءت مرحلة السياحة لدى زهاد الموصل ، فنرى الزاهد الموصلى أحمد الموصلى يرحل إلى الرقة فقابل أحمد الميموني - من ولد عابد الرقة المشهور ميمون بن مهران فيقول له : يا أحمد : أن تعمل ، قد عمل العاملون قبلك ، وأن تعبد فقد تعبد المتعبدون قبلك ، أولئك الذين قربوا الآخرة وبعادوا الدنيا ، أولئك الذين ولي الله إقامتهم على الطريق ، فلم يأخذوا ميمناً ولا شهاً ، ولو سمعت نعمة من نعماتهم المحتمرة في صدورهم المتفرغرة في حلوقهم ، يغيب عليك عيشك ، ولطردت عنك البطالة - أيام حياتك . . . ويذكره أحمد الميموني يقول أبو العالية الرياحي « يامعشر الربانيين من أمة محمد ﷺ ، انتدبوا للدار . . . » ويغشى على أحمد الموصلى (٢) . وكذلك يفعل الزاهد سباع الموصلى فإنه يرحل إلى الشام ، ويقابله زاهداً المشهور مضاء بن عيسى . . . ويسأله مضاء . . . إلى أى شيء أفضى بهم الزهد : فيجيب سباع : إلى الأناجس به (٣) . وقد تلمذ مضاء بن عيسى وأحمد بن أبي الخوارى على سباع وينقل ابن أبي الخوارى عنه أيضاً بعض الإسرائيليات (٤) .

وفي الموصل أيضاً - كما قلنا - ازدهرت فكرة الأبدال ، وظهر الخضر ، الشخصية القرآنية المشهورة لهؤلاء الأبدال . وتتضح صورة البدل هذه في الزاهد فتح بن محمد بن وشاح الأزدي البلدى الموصلى ويكنى أبا محمد (توفى عام ١٦٥ هـ فيما يقول الأزدي (٥) و ١٧٠ هـ فيما يقول ابن الجوزى ، وابن تفرى بردى (٦) ) . وقد كان فتح هذا من معاصرى المعافى بن عمران ومن أصدقائه .

ويذكر الأزدي صاحب تاريخ الموصل : أن والى الموصل الأمير العباسى أحمد بن إسماعيل ذهب

(١) الأزدي : تاريخ الموصل ص ٣١٦ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، وأبو نعم : الحلية ج ٨ ص ٢٨٨ ، وج ١٠ ص ١٣٤ .

(٣) أبو نعم : حلية ج ٨ ص ٢٩٢ ، وابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٦١ .

(٤) الأزدي : تاريخ الموصل ص ٢٥١ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٥ .

إلى منزل فتح بن وشاح الموصلى ، وسلم عليه ، فلم يخرج له فتح . فخرج ابنه ليعتذر للأمير وقال له إنه ناثم : فقال فتح من داخل البيت : ما أنا بناثم مالى ومالك . فقال له الأمير : هذه عشرة آلاف درهم خذها فضعها حيث شئت . فقال له : ضعها أنت فى موضعها . مالى ومالك يا هذا « وأبى أن يخرج إليه ولم يقبل منه مالا<sup>(١)</sup> .

وحين مات فتح ، غلقت الأسواق ، وخرج الناس مزدحمين - سيكون ويصرخون . وجاء الأمير أحمد بن إسماعيل وصلى عليه ، وكان أهل القرى يأخذون من تراب قبره فيذهبون به إلى منازلهم يتبركون به .

ويبدو أنه اشتهر « بالبكاء » يقول الأزدي : « وكان الغالب عليه البكاء<sup>(٢)</sup> » . أما صاحب النجوم الزاهرة فيقول « كان صاحب كرامات وأحوال<sup>(٣)</sup> . كما اتخذ أيضاً طريق الجوع كعباد الشام ويفضل العرى : وكان يقول فى جوف الليل « رب أجعنى وأعريتنى ، وفى ظلم الليل أجلسنى فبأى وسيلة أكرهتنى هذه الكرامة » ثم يتدفق فى البكاء ساعة ، وفى الفزع ساعة ... صورة غامضة يختلط فيها الزهد الشامى بزهد البصرة ... يعرى الحكيم الهندى العارى . ويدخل عليه المعافى بن عمران ، فقيه الموصل وناسكها ، فىرى ابته وعليها خرقة وابنه وهو مريض ، فيطلب من فتح بكسوة الصبية ، فيأبى ويقول دعها حتى يرى الله عز وجل ضرها وصبرى عليها ، فيرحمنى ، فلما تجاوز إلى الصبي المريض ، وقعد عند رأسه وسأله : حبيى ألا تشبهى شيئاً حتى أحمله : فسأله الصبي من أنت . فقال : المعافى ابن عمران ... فرفع الصبي رأسه وقال : منى الصبر وإليك البلاء ...

ثم هو البديل الأكبر - وزميل الخضر - وقد اعتبرت الموصل - كما قلت - بلد الأبدال . ويذكر ابن الجوزى قضية أبى غسان المؤذن الموصلى وخروجه للحج ... وفى مكة قابل رجلاً فارسياً من أهل الصلاح ، يغسل للناس ثيابهم ويشجر على الضعفاء ، فيغسل ثيابهم بغير أجر . فلما علم أنهم من الموصل ، سأله عن فتح الموصلى ، فلما عرف بوفاته ، بكى وأظهر الحزن . فلم استوضحوه أمره ، أخبرهم أنه كان يعيش فى فارس ، فراوده حلم عدة ليال : أن ائت فتحاً الموصلى ، فإنه من أهل الجنة ، فخرج من فارس حتى أتاه فى الموصل . فأخذه إلى المسجد حيث أكلا ... ثم قاما إلى الصلاة ، وتفرق الناس ، وساد المسجد الظلام ، فأتاهما رجل إلى المسجد ، وصلى ركعتين ثم تحدث إلى فتح وسأله عن العابد أبى المسرى جمزة الخولانى وكان يعيش فى قرية بالقرب من الموصل ، فأخبره

(١) الأزدي : تاريخ الموصل ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٤٧ .

(٣) ابن تترى يردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٥ .

الرجل الغرب أنه مريض ، وطلب منه أن يصاحبه في زيارته . وقام الاثنان ومضيا إلى دجلة ، فإذا بالرجلين يمشيان على الماء . . . . والفارسي ينظر . . . وفي الصباح أخبره الفارسي وحاول فتح أن ينكر ، ولكن الفارسي أكد له ما رأى . فأخذ عليه العهود ألا يقص هذا لإنسان طالما كان هو حيا . ثم أخبره أن الرجل الغرب هو الخضر<sup>(١)</sup> .

ولا نبحث في افتعال القصة ، إن التجربة الصوفية هي ملك لصاحبها ، وإنما أوردتها لكي أقرآن فكرة الأبدال كانت متمكنة في نفوس زهاد المسلمين ، وأنهم أضافوها إلى بلدان متعددة ، وفي مقدمتها الموصل .

بل تظهر فكرة « الأقطاب السبعة » لدى صوفيين موصليين ، وصلت إلينا أخبارهما غامضة وهما « سعدون الموصل » و « عبد الله اليوناني » . وقد كان « سعدون الموصل » فيما يقول محمد بن أبي الحواري ( شقيق أحمد بن أبي الحواري الزاهد الدمشقي المشهور ، وقد كان زاهداً مثل أخيه ) ، رجلاً مولهاً ، وكان يحسن إليه ، وكان سائماً . . . وقد ذكر سعدون لمحمد بن أبي الحواري قصة هذا القطب الكبير . وقد قابله في سياحته ، وقد سأله عن الطريق إلى الله - فأجاب : اجعل الدنيا لك سجنًا ، والآخرة سكنًا وحسنًا ، وعود عينيك البكاء والسهر ، والزم الخدمة في السحر ، وكن منه على حذر . . . وإذا عرفك الطريق إليه ، سخر لك الوجود ، وأذل لك الأسود . . . ثم يسير معاً ، ثم يعبر النهر على رذائه . . . وذهب إلى رجل يجود بنفسه ، فسأله . . . من يكون هذا الرجل فأجابته بأن اسمه عبد الوهاب . . . وهو من السبعة الأقطاب . . . ومات عبد الوهاب . ثم علم أن هذا القطب الكبير هو صاحب العلم الرباني ، عبد الله اليوناني . . . وقبل أن يودع سعدون عبد الله اليوناني سأله . . . أن يزوده بشيء ينتفع به في الدنيا والآخرة . . . فقال له : اسلك سبيل الهدى ، وجانب أهل المعنى والردى ، واقنع برزق اليوم ولا تهتم برزق غد ، وعامل مولاك بالرضا ، والصبر على البلاء والقضاء<sup>(٢)</sup> . والقصة . . . بلاشك في معظمها أسطورية ، ولكن يظهر فيها اسم « اليوناني » وأنه صاحب المعرفة وصاحب الحجة . ونحن نتساءل : هل تمت أثر خارجي في تلك القصص ، وفي ظهور مصطلح الأقطاب السبعة ، بالإضافة إلى انتشار فكرة الأبدال في الموصل .

ولقد رأينا أن فتح بن وشاح الموصل كان يمثل العبادة وأوائل الزهد ، إن صاحب تاريخ الموصل يسميه بفتح العابد<sup>(٣)</sup> . ويسميه صاحب النجوم الزاهرة « الزاهد العابد<sup>(٤)</sup> » ، وما يلبث أن يظهر الزهد

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٥٣ - ١٥٥ .

(٢) الحريفيش : الروض الفائق ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) الأزدي : تاريخ الموصل ص ٢٤٦ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٥ .

كاملاً ، بل الزهد الضارب للتصوف على يد فتح آخر ، وهو أبو نصير فتح بن سعيد الموصلی ( المتوفى سنة ٢٢٠ هـ ) . ويقرر ابن الجوزى أنه « قد يشبه هذا بالذى قبله إذا قيل فتح الموصلی وهما اثنان معروفان عند أهل العلم ، وإذا فرق بينهما بالكنية أو باسم الأب ، تباننا » (١) ويذكر الشرعاني بأنه « كان من أقران بشر بن الحارث والسرى السقطى ، وكان كبير الشأن فى باب الورع والمعاملات » (٢) . وسرى أنه كان على صلوات وثيقة ببشر بن الحارث ، وقد وصلت إلينا أقواله وكثير من أخباره عند بشر ابن الحارث .

أما عن أسرته ونشأته ، فليس لدينا الكثير عنها : سوى أنه كان شريفاً عربياً ، ولما ترهد ترك ديناه ، وكان « يوقد بالأجر » لكسب معاشه . كما كان له بضاعة عند أخ له ، يعمل بها فى البر والبحر - وهذا يدل على يسر أسرته وراثتها - - ثم بعث فتح فاستردها وأنفقها - ويعلق هو على هذا - على طريقة الزهاد « رأيت قلبى يميل إليها ، فكرهت أن تكون ثقتى سواه » (٣) أما عن أساتذته فيذكر ابن الجوزى أيضاً أنه أدرك عيسى بن يونس ، وأسند عنه ، وكان زميله فى سماع الحديث بشر بن الحارث أما عن أساتذته فى الزهد ، فيذكر بعض الزهاد أنهم رأوه فى حانوت سالم الدورق فى الموصل ، ولم يذكر أحد من مؤرخى طبقات الصوفية تفصيلاً لحياة سالم أو تلمذة فتح عليه . ولكن الأزدى صاحب تاريخ الموصل يذكر فى وفيات أربع وثمانين ومائة وفاة « سالم الدورق الموصلى » ويقرر أن « فتح الموصلى » كان يجلس إليه فيما يذكر . حدثني ابن مغيرة عن بعض رجاله : كان سالم يخرج إلى الجودى ، فيعتبر بما يرى ويبكي بكاء كثيراً . فرأته هناك عمجوز نبطية ثم دخلت الموصل ، فرأته قائماً فى السوق ، فقالت له : يا شيخ . تلك القرحة التى بك - برئت بعد (٤) فكان هناك إذن زاهد بكاء ، وكان يتعبد خارج الموصل ، وكان على صلوات بالنبط ، ثم يأتي سالم الدورق إلى الموصل ، إلى حانوته ، فيقبل عليه العباد ، ومنهم فتح ، فعالم إذن أستاذ فتح أو صديقه : وسرى أن فتحاً سيغشى عليه فى حانوت سالم الدورق فى مشهد مثير انتشر بين العباد . ويذكر فتح أنه صاحب ثلاثين شيخاً - كانوا يعدون من الأبدال - كلهم أوصوه عند فراقه إياهم ، أن يتقى معاشرَةَ الأحداث ومخالطتهم (٥) . ولكن من هم هؤلاء الأبدال . . . لم نترك لنا المصادر أسماء أحد منهم .

وكانت طريقة فتح بن سعيد فى التعبد ، طريقة سلفه فتح بن محمد بن وشاح ، بل طريقة عباد

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) الشرعاني : طبقت ج ١ ص ٦٨ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٥٨ .

(٤) الأزدى : تاريخ الموصل ص ٣٠٠ .

(٥) القشيري : الرسالة ج ٢ ص ٧٤٥ .

المسلمين جميعاً وزهادهم : الجوع والعري . ويذكر بشر بن الحارث عنه قصصاً وأحاديث تشبه قصص فتح الوشاحي ، وتختلط به يقول بشر « بلغني أن بنتاً لفتح الموصلى عربت : فقيل له : ألا تطلب من يكسوها فقال : لا ، ادعها ، حتى يرى الله عز وجل عريها وصبري عليها » وهذا نهاية مقام الصبر عند العباد . ويذكر بشر أيضاً « فكان إذا كان ليالى الشتاء ، جمع عياله ، وقام بكسائه عليهم ، ثم قال : اللهم أفقرتني وأفقرت عيالي وجوعتني وجوعت عيالي ، وأعربتني وأعربت عيالي ، بأى وسيلة توسلتها إليك ، وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبائك ، فهل أنا منهم حتى أفرح » وإذا أصيب بالفرح . قال « يا رب . ابتليتني بيلاء الأنبياء ، فشكر هذا أن أصلى الليلة أربعاً ركعة » وحين يعود إلى منزله ، وهو صائم ، فإذا بأهله جلوس في الظلام ، لاسراج لديهم ، ولا طعام . . . فيبكي من الفرح ويقول : « إلهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج ، بأى يد كانت مني » وما زال يبكي حتى الصباح « فإذا حصل على أقل القليل من المال ، اشترى نخالة ، يتعيش بها هو وأهله (١) » .

كان هذا هو طريق افتعال الجوع والعري ، للوصول إلى درجات أو مقامات الصبر والحب . . . واصطفاء للمريد ووجه له . وكثيراً ما كان الزهاد يقومون بهذا الدور تصفية لنفوسهم ، ولكننا نرى فتحاً هنا يمارسه حتى على ابنته وأهل بيته .

وهو في هذا كله يتردد على سالم الدورق : ولم يكتمل نضجه الصوفي بعد . ويذكر عثمان بن عمار الزاهد البصري ، أنه غاب غيبة ، فلما قدم لقي فتحا الموصلى في حانوت سالم الدورق : فقال له : يا بصري : أى شيء رأيت في غيبتك . فأجاب : بأنه رأى عجائب كثيرة « وأخبار مختلفة . فصاح فتح صيحة ، فقال عثمان : أنت تصيح من الخبر ، فكيف لو شاهدت القيامة ، وصاحب القيامة ، فشهِق شهقة ، ووثب من الحانوت ، فخر مغشياً عليه . . . فحملة حمزة وسالم وأصحابها ، وأدخلوه الحانوت فإزال مغشياً عليه إلى العصر . ثم لما فتح عينيه قال لعثمان : كيف قلت ، فصاح به : أن اسكت . فلما سئل عثمان : لم أمرته بالسكوت . فأجاب : مخافة إن رددت عليه القول أن أقتله (٢) » كان فتح إذن في هذا الوقت ، لم ينضج بعد النضوج الكامل ، لتقبل الواردات والأحوال والحواس . . . ليكون قطب الموصل وإمام زهادها . . . كان في حالة من اليأس دائمة ، حالة عرفت بعد باسم القبض . . . وصيغة دعائه تثبت هذا « كبرت على خطاياي وكثرت ، حتى لقد آيستني من عظيم عفو الله . . . وإني آيس منك ، وأنت الذي جدت على السحرة بعد أن غدوا كفرة فجرة ، وأني آيس منك ، وأنت ولي كل نعمة ، وأني آيس منك ، وأنت المؤمل لكل فضل ومعروف ، وأني آيس

(١) القشيري : الرسالة ج ٢ ص ٧٤٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٩٣ ، وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٥٩ .

منك ، وأنت المغيث عند الكرب . . . ولم يزل يقول « آيس منك » حتى سقط مغشياً عليه (١) .  
 وكان فتح يكثر من البكاء ، حتى تدمع عيناه بالدماء . وقد سئل عن بكائه الدموع والدم فأجاب  
 « بأني بكيت الدموع على تخلفي عن واجب حق الله عز وجل . وبكيت الدم على الدموع ، خوفاً أن  
 تكون ما صحت لي الدموع (٢) » .

ولكن ما يلبث أن يسيطر على تقلبات نفسه وتلويحاتها ، ويمر بهدوء في طرقات الموصل بصيين مع  
 أحدهما كسرة عليها غسل ، ومع الآخر كسرة عليها كامخ . فقال الصبي الثاني للأول متذلاً « أطمئني  
 من خبزك » فقال الأول : إن كنت لي كلباً أطعمتك . قال نعم . فأطعمه من خبزه وعسله ، وجعل في  
 فمه خيطاً يقوده . فقال : فتح لو رضيت بخبزك . ما كنت كلباً لهذا « وهي قصة رمزية يعلق عليها  
 الزاهد الطرطوسي عمران بن موسى : « فهكذا الدنيا (٣) » إنما نحن كلاب لها . لقد كان فتح هنا في  
 مقام الرضا ، فوق الدنيا وزينتها . ويعبر أدق تعبير عن هذا ، حين يرى الناس في يوم عيد وعليهم  
 الطيبالس والعائم « إنما ترى ثوباً يبلى ؛ وجسداً يأكله الدود هؤلاء أنفقوا خزائهم على بطونهم  
 وظهورهم ، ويقدمون على ربهم مفاليس » ولم يعد في هذه المرحلة غشية ولا صرخات ، إنما هي عين  
 الحكيم الزاهد ترى وتتنظر .

وفي هذه المرحلة كان هو معلم الموصل الكبير . . . واتصل بصوفية بغداد وبخاصة بشر بن الحارث  
 الحافي ، وقد كان تتلمذ معه على عيسى بن يونس في رواية الحديث . وقد آق إليه مراراً وكان عليه جبة  
 من صوف وعلى رأسه مئزر من صوف ويده ركوة . جاء مرة يسأله عن حديث استمعاً إليه سويماً عن  
 عيسى بن يونس ، وشك فتح الموصلي في سماعه هوللحديث . وهذا يدل على عناية الرجل بالحديث .  
 وأتاه مرة أخرى « وكان نائر الشعر ملتفاً بالعباء » ولما علم بشر بمقدمه ، خرج مسرعاً فصافحه  
 وعانقه . . . وطلب أطيب الطعام . . . فأتوا إليه به . . . فأكل ، ثم حمل بقية الطعام ، وودع بشراً  
 وأصحابه ثم خرج . وقد علق بشر على هذا . . . وقال : إن طيب الطعام يستخرج خالص الشكر لله  
 « ويعلك سبب حمله للباقي من الطعام » عندهم: إذا صح التوكل لا يضير الحمل . . . « (٤) ويقول :  
 « وهذا فتح الموصلي . . . جاءنا زائراً (٥) » ، وهي دروس في دقيق التصوف ، أراد الشيخان إظهارها  
 هؤلاء المريدين .

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٥٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ٤ ص ١٦١ ، والحريش : الروض القائق ص ٦٠ ، ٦١ .

(٣) المصدر السابق : ج ٤ ص ١٥٨ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٩٤ .

(٥) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٥٧ ، والطوسي : اللع ص ٢٤٤ .

وأخذ فتح الموصلي يلتقي بلمحات في التصوف رائمة فاتنة ، ونقل عنه بشرين الخارث حديثه في الحب ، وأن طريقه إدامة النظر بقلبه « من أدام النظر بقلبه ، ورثه ذلك الفرح بالمحبوب » ولن نصل إلى الحب إلا بالايثار « ومن آثره على هواه ، ورثه ذلك حبه إياه . ثم الشوق إليه يتملكه ، والزهد فيما سواه » ومن اشتاق إليه ، وزهد فيما سواه ، ورعى حقه وخافه بالغيب ، ورثه ذلك النظر إلى وجهه الكريم (١) « فغاية الزاهد إذن الرؤية السعيدة ، النظر إلى وجه الله متجلياً في بهائه .

وإذن لقد استهل فتح في الحب الإلهي : وقد أورد صاحب اللمع أيضاً القصة الشائعة عن كثير من الصوفية ، أنه أخذ صيباً له قبله . فسمع هاتفاً يقول : يا فتح : ألا تستحي أن تحب معنا غيرنا (٢) « فلم يقبل له ولداً بعد ذلك . ونحن نعلم أن رابعة العدوية قد هتفت من قبل لرياح القيسى بنفس المتناف . . .

وأدلى فتح الموصلي بدلوه في بعض المعاني الصوفية ، فقد نقل إلينا أنه سئل عن الصدق : فأدخل يده في كير الحديد . . . وأخرج الحديد المحماة ، ووضعها على كفه . وقال : هذا هو الصدق (٣) . وأخيراً . . . وصل الرجل إلى أوج الاستهلاك في مقام الحب . ويقص تلميذه أبو إسماعيل - وكان من نصارى الموصل وأسلم على يديه . . . أنه : « كان والله - كهيئة الروحانيين ، معلق القلب بما هناك ، ليست له في الدنيا راحة » .

وأخيراً نراه بسبق الخلاج في مواقفه الصوفية النادرة . يقص أبو إسماعيل أنه شهد العيد الأضحى ذات يوم بالموصل ، فنظر إلى الدخان يغور من نواحي المدينة . . . فبكى ثم قال : . . . قد قرب الناس قربانهم ، فليت شعري ما فعلت في قرباني عندك أيها المحبوب . . . ثم سقط مغشياً عليه . . . فلما أفاق ، مضى إلى بعض أزقة المدينة . . . وصاح مرة ثانية « تقرب المتقربون بقربانهم وأنا أتقرب إليك بطول حزني - يا محبوب ، تتركني في أزقة الدنيا محبوساً . . . (٤) » ، ثم غشى عليه . . . وحمل إلى بيته . . . ومات بعد ثلاث سنوات .

وتلك صورة حلاجية - حدثت قبل الخلاج ونادى بها بعض الصوفية ، ومنهم فتح الموصلي . وهي صورة التصوف الإسلامي الحقيقي ، أن يكون قربان الذبيح ، قربان إبراهيم لإسماعيل . . . قربان روي ، يقوم به الصوفي المسلم فداء له . . . هنا تم تضحية إبراهيم . وكما أراد الصوفية أن يحققوا هذا

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩٣ ، والشرافي ج ١ ص ٦٨ .

(٢) الطوسي : اللمع : ص ٢٦٥ .

(٣) القشيري : الرسالة : ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٦٠ .

بالموت المادى على أيدى الفقه . ولكن الفقه لم يتناول سوى الحلاج ، حين شطح وحين باح ، وحين أوغل فى نمدى الفقه تحدياً صارخاً لكى تقتل نفسه اللعينة ، فيحقق مقام القربان الإسلامى الأول . ويموت فى مقام إبراهيم لم يتحقق ، وفى عنقه صوفة القربان الأول . خرقة الصوفية العديدة . لقد أوصل هؤلاء الصوفية جميعاً صوفيتهم بمصدر إسلامى بحت ، هو ضحية الإسلام فى عيد فطر لا يكبش من الأكباش ، وإنما بالجدد نفسه ، حاملاً رمز الكبش .

لقد كان فتح ، كما كان غيره من زهاد أواخر القرن الثانى مقدمة لظهور التصوف - كعلم له أصوله وقواعده .